

تفسير البحر المحيط

@ 40 @ العرب ، لم يؤمنوا به ، حيث لم يفهموه ، واستنكفوا من اتباعه . وقيل : ولو
نزلنا القرآن على بعض العجم من الدواب فقرأه عليهم ، لم يؤمنوا ، لعنادهم لقوله تعالى
: { وَلَوْ أَنزَلْنَاهُ نَزْلَآءَ الْوَيْهَمِ الْمَلَأَتْكُفَّاتُ { الآية ، وجمع جمع السلامة ،
لأنه وصف بالإنزال عليه والقراءة ، وهو فعل العقلاء . وقيل : ولو نزل على بعض البهائم ،
فقرأه عليهم محمد صلى الله عليه وسلم) ، لم تؤمن البهائم ، كذلك هؤلاء لأنهم : {
كَآلَاءُ زُعَامٍ بَلَّ هُمُ أَضَلُّ سَبِيلًا } انتهى . .
ولما بين بما تقدم ، من أن هذا القرآن في كتب الأولين ، وأن علماء بني إسرائيل يعلمون
ذلك ، وكان في ذلك دليلان على صدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، بين أن هؤلاء
الكفار لا تجدي فيهم الدلائل . ألا ترى نزوله على رجل عربي بلسان عربي ، وسمعه وفهموه
وأدركوا إعجازه وتصديق كتب الله القديمة له ، ومع ذلك جحدوا وسموه تارة شعراً وتارة
سحراً ؟ ولو نزل على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية ، لكفروا به وتمحلوا بجحوده .
وقال الفراء : الأعجمين جمع أعجم وأعجمي ، على حذف ياء النسب ، كما قالوا : الأشعرين ،
وواحدهم أشعري . وقال ابن الجهم : قال الكميت : % (ولو جهزت قافية شرودا % .
لقد دخلت بيوت الأشعرينا .

%) .

انتهى . وقرأ الحسن ، وابن مقسم : الأعجمين ، بياء النسب : جمع أعجمي . والضمير في {
سَلَاكَ ذَاهُ } ، الظاهر أنه عائد على ما عادت عليه الضمائر . قيل : وهو القرآن ، وقاله
الرماني . والمعنى : مثل ذلك السلك ، وهو الإدخال والتمكين والتفهيم لمعانيه .
سَلَاكَ ذَاهُ } : أدخلناه ومكناه في { قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ } . والمعنى : ما ترتب
على ذلك السلك من كونهم فهموه وأدركوه ، ولم يزددهم ذلك إلا عناداً وجحوداً وكفراً به ،
أي على مثل هذه الحالة وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له ، كما وضعناه فيها . فكيف
ما يرام إيمانهم به لم يتغير ؟ وأعماهم عليه من الإنكار والجحود ، كما قال : { وَلَوْ
نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاكَ عِلَاقٍ كَرَتَّابًا فَبِئْسَ فِئْرٌ طَاسٍ } الآية . وقال الكرمانى : أدخلناه فيها ،
فعرفوا معانيه ، وعجزهم عن الأتيان بالإيمان بمثله ، ولم يؤمنوا به . وقال يحيى بن سلام :
الضمير في سلكناه يعود على التكذيب ، فذلك الذي منعهم من الإيمان . انتهى . ويقويه قوله
: { فَتَقَرَّأَهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ } . وقال الحسن : الضمير يعود

على الكفر الذي يتضمنه قوله : { مَّـلَـكَا نَزُّوا بِهِـ مُؤْمِنِينَ } . انتهى . وهو قريب من القول الذي قبله . وقال عكرمة : سلكناه ، أي القسوة ، وأسند السلك تعالى إليه ، لأنه هو موجد الأشياء حقيقة ، وهو الهادي وخالق الضلال . .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته ؟ قلت : أراد به الدلالة على تمكنه مكذباً في قلوبهم أشد التمكين وأثبتته ، فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه . ألا ترى إلى قولهم : هو مجبول على الشح ؟ يريدون تمكن الشح فيه ، لأن الأمور الخلقية أثبت من العارضة ، والدليل عليه أنه أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه ، وهو قوله : { لَا يُؤْمِنُونَ } به . انتهى . وهو على طريقة الاعتزال والتشبيه بين السلكين ، يقتضي تغاير من حل به . والمعنى : مثل ذلك السلك في قلوب قريش ، سلكناه في قلوب من أجرم ، لاشتراكهما في علة السلك وهو الإحرام . قال ابن عطية : أراد بهم مجرمي كل أمّة ، أي إن هذه عادة □ فيهم ، أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب ، فلا ينفعهم الإيمان بعد تلبس العذاب بهم ، وهذا على جهة المثال لقريش ، أي هؤلاء كذلك ، وكشف الغيب بما تضمنته الآية يوم بدر . .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما موقع { لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ } من قوله : { سَلَكَ ذَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ } ؟ قلت : موقعه منه موقع الموضح والملخص ، لأنه مسوق لثباته مكذباً مجحوداً في قلوبهم ، فاتبع بما يقرر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجوده حتى يعاينوا الوعيد ، ويجوز أن يكون حالاً ، أي سلكناه فيها غير مؤمن به . انتهى . ورؤيتهم العذاب ، قيل : في الدنيا ، وقيل : يوم القيامة . وقرأ الجمهور : { فَيَذَـأُتِيهِمْ } ، بياء ، أي العذاب .